البِدْعَة

أسبابها ومضارها

لفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر

الشيخ محمود شلتوت

الواسطة

بين الحق والخلق

لشيخ الإسلام ابن تيميّة

تهْذِيب

سَعْد بن عَبْد الرَّحمن الحُصَيِّن

بسم الله الرحمن الرحيم

البدعة

أسبابها ومضارها

لفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر

الشيخ محمود شلتوت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، نبينا محمد وآله أجمعين .

روي عن النبي ﷺ كثير من الأحاديث الصحيحة تدور كلها حول التحذير من الابتداع . ومن أشهر تلك الأحاديث : « من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد » لفظه : من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد : متفق عليه .

وترجع البدعة في واقعها إلى اختراع عبادة لم تكن معروفة عن النبي ﷺ ولم يرد بها نقل صحيح ولا تدل عليها أدلة شرعية معتبرة ، فهي أولا خاصة بما يتعبد به . وإذن فلا ابتداع في العادات ولا في الصناعات ولا في وسائل الحياة العامة .

إن الابتداع في الدين له أسباب توقع فيه ، ومضار تترتب عليه ، وشأن العاقل إذا عرف مضاراً لخطة ما ، أن يجتهد في إبعاد نفسه عنها ، ويجعل بينه وبين الوقوع في أسبابها المفضية إليها وقاية تعصمه من الوقوع فيها ، وينعقد لذلك فصلان :

أحدهما في بيان الأسباب التي توقع في الابتداع وفي انتشار البدع ، والآخر في بيان المضار التي تترتب على الابتداع والعمل بالبدعـة .

الفصل الأول
في أسباب الابتداع

لابد لكل شريعة يراد لها البقاء كاملة ، لا يعتريها نقص ، سليمة لا يلحقها تحريف ، من أن تعنى بمعرفة النوافذ التي يتسرب منها الخلل إلى الشرائع فتسدها وتحكم غلقها ، وبخاصة إذا كانت هذه الشريعة قد جاءت على أساس من العموم لتنظيم شعوب تختلف ألسنتها ، وتتباين عاداتها ، وتتعدد دياناتها التى كانت عليها من قبل .

وهكذا فعل النبي ﷺ في شريعته المطهرة ، فقدر وهو في أول مراحله ، عليه الصلاة والسلام ، المداخل التي يمكن أن ينفذ منها الخلل إليها وينتشر ، فنهى عنها ، وحذر منها وبالغ في النكير على من حَامَ حولها .

وقد رأينا بعد الاستقراء ، أن المداخل الموقعة في البدعة ، منها ما يوقع في ابتداعها ، ومنها ما يوقع في العمل بها وانتشارها ، وأن الشريعة عنيت بالأمرين وأشارت إلى أسباب

كل منهما ، ووضعت لهذه الأسباب العلاج الذي لو أحسن استعماله لسلم الدين ونجت الأمة منها . وظل الدين نقياً سليما كما شرعه الله ، وكما بلغه رسوله ، ودرج عليه الأصحاب من بعده .

يرجع الابتداع إلى أسباب ثلاثـــة :

أ – الجهل بمصادر الأحكام وبوسائل فهمها من مصادرها .

ب – مسابقة الهوى في الأحكـام .

جـ – تحسين الظن بالعقل في الشرعيات .

الجهل بمصادر الأحكام وبوسائل فهمها :

مصادر الأحكام الشرعية كتاب الله ، وسنة رسوله ، وما ألحق بهما من الإجماع والقياس ، والأصل في هذه المصادر التى يحكم على سائرها هو كتاب الله ، وتليه السنة ، ثم الإجماع ، ثم القياس . والقياس لا يرجع إليه في أحكام العبادات ؛ لأن من أركانه أن يكون الحكم في الأصل معلولا بمعنى يوجد في غيره ، ومبنى العبادة على التعبد المحض والابتلاء الخالص . ومداخل الخلل الناشئة من هذه الجهة ،

ترجع إلى الجهل بالسُّنة ، وإلى الجهل بمحل القياس ، وإلى الجهل بأساليب اللغة العربية ، وإلى الجهل بمرتبة القياس .

أما الجهل بالسنة : فيشمل الجهل بالأحاديث الصحيحة ، والجهل بمكان السنة من التشريع ، وقد يترتب على الأول إهدار الأحكام التي صحت بها أحاديث كما يترتب على الثاني إهدار الأحاديث الصحيحة وعدم الأخذ بها ، وإحلال بدع مكانها لا يشهد لها أصل من التشريع ، وقد نبه على ذلك حديث « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا »[1] . وجاء فيه أيضاً حديث « ما من نبي بعثه الله في أمته قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسُننه ويقتدون بأمره ، ثم تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، وَمَنْ جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[2] .

وأما الجهل بمحل القياس في التشريع ، فقد نشأ عنه أيضاً

(١) متفق عليه .

(٢) مسلم .

أن قاس الناس من متأخرى الفقهاء في العبادات وأثبتوا به في الدين مالم ترد به سنة ولا عمل ، مع توفر الحاجة إلى عمله وعدم المانع منه ، ومن ذلك إسقاط الصلاة ، فإن أصحابها قاسوها على فدية الصوم التى ورد النص بها ، ولم يقفوا عند هذا الحكم بالجواز ، بل توسعوا فشرعوا لها من الحيل ما يجعلها صورة لاروح فيها ولا أثر لها .

والابتداع هنا من أغرب أنواع الابتداع ، فهو ابتداع لأصل الحكم واحتيال لإسقاط تكاليف الحكم المبتدع ، ثم إعتبار الأمرين البدعة والاحتيال في إسقاطها من الدين – ويجدر بنا تسميته بالبدعة المركبة – يخرجان من عهدة التكليف ، ويترتب عليهما ثواب الله الذي أعده للذين آمنوا وعملوا الصالحات . وهذا نوع خاص من البدعة .

وأما الجهل بأساليب اللغة العربية ، فقد نشأ عنه أن فهمت بعض النصوص على غير وجهها ، وكان ذلك سبباً في إحداث مالا يعرفه الأولون . ومن ذلك قول بعض الناس إن حديث « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ » يطلب الصلاة على النبي من المؤذن عقب الأذان ، ولم يطلب منه أن تكون بغير كيفية الأذان ، وهي الجهر ، فدل على

مشروعيتها بالكيفية المعروفة ! ووجهوا دلالة الحديث على طلبها من المؤذن بأن الخطاب في قوله صلى الله عليه وسلم لجميع المسلمين ، والمؤذن داخل فيهم ، أو بأن قوله (إذا سمعتم) يتناوله لأنه يسمع نفسه ، وكلا التأويلين جهل بأساليب اللغة في مثل هذا ؛ فصدر الحديث لم يتناول المؤذن قطعاً ، وآخره جاء على أوله فلا يتناوله أيضاً . ومن ذلك أيضاً ما يزعمه بعض آخر من أن المحرم من الخنزير لحمه دون شحمه ؛ لأن القرآن إنما حرم اللحم دون الشحم ، وهو ابتداع نشأ من الجهل بأن كلمة « اللحم » في اللغة العربية تطلق على الشحم ولا عكس . ومنه أيضاً قول بعض المتكلمين إن لله (جنبا) بدليل قوله تعالى : ﴿ **أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله** ﴾ وهو ابتداع نشأ من الجهل بأن العرب لا تعرف « الجنب » في مثل هذا التركيب بمعنى العضو المعروف فهي تقول : هذا يصغر في جنب ذاك ، تريد بالإضافة إليه . قال الإمام الرازي في تفسيره : القائلون بإثبات الأعضاء لله تعالى استدلوا على إثبات الجنب بهذه الآية . واعلم أن دلائلنا على نفي الأعضاء قد كثرت فلا فائدة في الإعادة : وبعد أن ساق المأثور عند المتقدمين عن المراد بالجنب قال : واعلم أن الإكثار من هذه العبارات لا يفيد شرح الصدور وشفاء

العليل فنقول : الجنب سمي جنبا لأنه جانب من جوانب الشيء ، والشيء الذي يكون من لوازم الشيء وتوابعه يكون كأنه جانب من جوانبه ، فلما حصلت هذه المشابهة من الجنب الذي هو العضو ، وبين ما يكون لازما للشيء وتابعاً له صح الإطلاق ، ولا جرم في إطلاق لفظ الجنب على الحق والأمر بالطاعة . قال الشاعر :

أما تتقين الله في جنب وامق له كبد حرى عليك تقطع

هذه جملة من الأمثلة يتضح بها كيف يأتى الابتداع من جهة الجهل باللغة العربية : مفرداتها وأساليبها ، وقد أجمع الأولون على أن معرفة ما يتوقف عليه فهم الكتاب والسنة من خصائص اللغة العربية شرط أساسي في جواز الاجتهاد ومعالجة النصوص الشرعية والاقتراب منها .

وأما الجهل بمرتبة القياس في مصادر التشريع وهي التأخر عن السنة ، فقد ترتب عليه أن قاس قوم مع وجود سنة ثابتة وأبوا أن يرجعوا إليها فوقعوا في البدعة . والمتتبع لآراء الفقهاء يجد أمثلة كثيرة لهذا النوع ، وأقربها ما قاله البعض من قياس المؤذن على المستمع في الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام

عقب الأذان مع وجود السنة الزكية التى قد علمت حكمها وأنها مقدمة على القياس ، مع أن حديث « إذا سمعتم المؤذن » يدل بأسلوبه على اختصاص المستمعين بالصلاة عقب الأذان .

متابعة الهوى في الأحـــكام :

قد يكون الناظر في الأدلة ممن تملكهم الأهواء ، فتدفعه إلى تقرير الحكم الذي يحقق غرضه ثم يأخذ في تلمس الدليل الذي يعتمد عليه ويجادل به ، وهذا في الواقع يجعل الهوى أصلا تحمل الأدلة عليه ويحكم به على الأدلة . وهو قلب لقضية التشريع ، وإفساد لغرض الشارع من نصب الأدلة ومتابعة الهوى أصل الزيغ عن صراط الله المستقيم ﴿ **ومن أضلّ ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** ﴾ وقد جاء في الصحيح (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) والابتداع به يكثر عند أرباب المطامع في خدمة الملوك والحصول على عرض الدنيا وحطامها ، ولعل أكثر الحيل التى نراها منسوبة إلى الدين – والدين منها برىء – يرجع إلى هذا . ولا يبعد أن يكون منه الأذان السلطاني ونحوه من البدع التى لم نرها إلا في صلاة الملوك والسلاطين ، وكذلك بدعة المحمل ، وبدعة

الاجتماع لإحياء بعض الليالى وغير ذلك مما يغلب أن يكون رغبة لملك أو مشورة لمقرب إليه ، ثم توارثتها الأجيال ، وعمت الجماهير وصارت عندهم ديناً ينكرون على من أنكره .

والمبتدعون بمتابعة الهوى ينتسبون بهذه الخطة السيئة إلى أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ **ولا تشتروا بآيات الله ثمناً قليلا وإياى فاتقون** ﴾ . ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلا أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصْبَرَهُم على النار . ذلك بأن الله نزَّل الكتاب بالحق ، وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد** ﴾ . والواقع أنه بمتابعة الهوى تكتسح الأديان ويقتل كل خير ، والابتداع به أشد أنواع الابتداع إثماً عند الله ، وأعظم جرماً على الحق . فكم حرف الهوى من شرائع وبدل من ديانات ، وأوقع الإنسان في ضلال مبين .

تحسين الظن بالعقل في الشرعيات :

إن الله جعل للعقول حداً تنتهى في الإدراك إليه ، ولم يجعل لها سبيلا إلى إدراك كل شيء ، فمن الأشياء مالا يصل العقل

إليه بحال . ومنها ما يصل إلى ظاهر منه دون اكتناه . وهى مع هذا القصور الذاتي لا تكاد تتفق في فهم الحقائق التى أمكن لها إدراكها ، فإن قوى الإدراك ووسائله تختلف عند النظار اختلافا كثيراً ، ولهذا كان لابد فيما لا سبيل للعقول إلى إدراكه ، وفيما تختلف فيه الأنظار ، من الرجوع إلى مخبر صادق يضطر العقل أمام معجزته إلى تصديقه ، وليس ذلك سوى الرسول المؤيد من عند الله العليم بكل شيء ، الخبير بما خلق ، وعلى هذا الأصل بعث الله رسله يبينون للناس ما يرضى خالقهم ، ويضمن سعادتهم ويجعل لهم حظاً وافراً في خيرى الدنيا والآخرة .

وقد شذ عن هذا الأصل قوم رفعوا العقل عن مستواه الذي حدده الله ، وجعلوا حجة الله على عباده ، وحكموه فيما لا يدركه مما أنزل الله ، فرجعوا في التشريع إليه وأنكروا في النقل كل ما لم يعهد في إدراكه ، ثم توسعوا في ذلك وجعلوه أصلا في التشريع الإلهي ، واستباحوا بعقولهم فيه ما لم يأذن به الله ، وما لا نعلم أنه يرضى الله أو يغضبه ، ولقد أعانهم على الابتداع في العبادات أنهم نظروا فيما أدركه العلماء من أسرار التشريع وحكمه ، وزعموا أن هذه الأسرار هي المقصودة لله في تشريع

الحكم ، وأنها داعية إليه ، فشرعوا عبادات على مقتضى هذه الأسرار في بعض تشريع الله .

وهذا هو الاستحسان الذي ذمه أصحاب الرسول وأئمة الهدى والدين ، وأنكروا على الآخذين به . ومن ذلك قول الشافعي : « الاستحسان تلذذ ، ولو جاز الاستحسان في الدين لجاز ذلك لأهل العقول من غير أهل العلم ، ولجاز أن يشرع في الدين في كل باب وأن يخرج كل أحد لنفسه شرعاً » وقوله « ومن استحسن فقد شرع » ومعناه كما قال الرياني « إنه نصب من جهة نفسه شرعاً غير الشرع » وقد وقع كثير من الابتداع بهذا الطريق ، فبحكم العقل القاصر رد كثير من الأمور الغيبية التي صحت بها الأحاديث كالصراط والميزان وحشر الأجساد والنعيم والعذاب الجسمى ورؤية البارى وما إلى ذلك مما لم يدركه العقل ولا ينهض على إدراكه . ومن ذلك نزول عيسى عليه السلام الذي صحت به الأحاديث .

وباستحسان العقل القاصر تُرك العمل بكثير من الأحكام الشرعية جرياً وراء أن غيرها أقوى منها في تحصيل الغرض المقصود من التكليف ، وباستحسان العقل القاصر زيدت عبادات وكيفيات ما كان يعرفها أشد الناس حرصاً على

التقرب من الله .

هذا وكما يترتب الابتداع بتحسين الظن على عدم إدراك العقل أو على ظن أن الأسرار مسوغات للتشريع وداعية إليه ، يترتب أيضاً على إرادة دفع منكر أو مخالفة لشرع ثابت فتستحسن بدعة يشتغل الناس بها عن مقارفة المنكر بزعم أن البدعة بمشروعية أصلها أولى من ارتكاب المنكر الصريح ، ومن ذلك قراءة القرآن بصوت مرتفع في المسجد ، وقراءة الأدعية كذلك أمام الجنائز دفعاً كما يقولون لتحدث الناس بكلام الدنيا في المسجد والجنائز .

ومنه الابتداع بقصد الحصول على زيادة المثوبة عند الله ؛ ويظن أن طريق هذا تحميل النفس مشقة في جنس ما يتعبد به الله . وهذا تارة يكون بإلحاق غير المشروع بالمشروع ؛ لأنه يزيد في المقصود من التشريع ، ومن أمثلة ذلك التعبد بترك السحور لأنه يضاعف قهر النفس المقصود من مشروعية الصوم ، والتعبد بتحريم الزينة المباحة التي لم يحرمها الله لأنه يزيد في الحكمة المقصودة من تحريم الذهب والحرير . ومن هذا النوع اختيار أشد الأمرين على النفس عند تعارض الروايات ، مع أن المأثور عنه ﷺ أنه ما خير بين أمرين إلا اختار

أيسرهما . وحمل جميع أفعال النبي ﷺ على التعبد الذي يجب فيه التأسِّي مع أن كثيراً منها عادى لا تعبد فيه ولا يطلب فيه التأسّي .

وتارة يكون باختيار عبادات شاقة لم يأمر بها الشارع كدوام الصيام والقيام والتبتل وترك التزوج ، والتزام السنن والآداب كالتزام الواجبات ، وقد جاء تحذير عن ذلك كله كما في قوله عليه السلام : « ما بال قول يتنزهون عن الشيء أصنعه ، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم خشية له » ، وقوله عليه السلام « لن يشاد الدينَ أحدٌ إلا غلبه » وقوله « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم » وقد رد النبي ﷺ على ابن عمر والرهط الذين تقللوا عبادته ﷺ وأدوا مشاق الطاعات .

وقد غفل قوم عن هذه التحذيرات واخترعوا لأنفسهم عبادات أو كيفيات في العبادات أو التزامات خاصة ، وعبدوا بها وعلموها لأتباعهم على أنها دين ، ودين قوى ، وجهلوا أن القرب من الله إنما يكون بالتزام تشريع الله وأحكامه ، وأن وسائل التقرب إليه محصورة فيما شرعه وبلغه عنه رسوله الأمين ، فوقعوا بذلك في البدعة والمخالفة وحرموا ثواب العمل

وكانوا من الآثمين .

هذه الأسباب التي أوردناها هنا بلابتداع ، قد أحاط بأطرافها وجمع أصولها حديث : « يحملُ هذا العلم في كل خلفٍ عدوله ، ينفون عنه تحريفَ الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » فتحريف المغالين يشير إلى التعصب والتشدد ، وانتحال المبطلين يشير إلى تحسين الظن بالعقل في الشرعيات ومتابعة الهوى ، وتأويل الجاهلين يشير إلى الجهل بمصادر الأحكام وبأساليب فهمها من مصادرها .

الأسباب المفضية إلى ذيوع البدعة :

يرجع ذيوع البدعة وانتشارها بين الناس إلى أمرين شديدي الخطر على سلامة الأديان من التحريف والزيادة والنقص :

أولهما – اعتقاد العصمة في غير المعصوم . والآخر – التهاون في بيان الشريعة على الوجه الذي به نقلت عن الرسول ﷺ .

وكثيرا ما ترى الأول فيمن ينتسبون إلى طرق التصوف وأنهم

يقرأون عن شيخ طريقتهم شيئاً من الأحوال التي تنافي الأحكام الشرعية فيعتقدون أنها من التشريع الذي خص الله به عباده المقربين ، وأن شيخهم لا يفعل إلا حقا ، ولا يقول إلا صدقاً ، والفقه للعموم وهذه طريقة الخصوص ، فيتبعونه في كل ما يؤثر عنه من قول أو فعل على أنه الطريق المقرب إلى الله الموصل إلى رضاه .

وتراه أيضاً في أتباع الفقهاء يقرأون عنهم في كتبهم ، ويعتقدون عصمتهم من الزلل ، فيتمسكون بكل آرائهم وإن وصلتهم الرواية الصحيحة عن رسول الله بخلاف رأى أئمتهم ، وقد أفرط الناس في رفع مستوى العلماء ومؤلفى الكتب بالنسبة إلى ما خلفوه من آراء وأحكام ، واعتقد كل فريق أن رأى متبوعه هو الحق ، وقالوا : إنه لو كان الدين غيره لما استقر على توالى العصور ، ولأنكره من قبلنا من الشيوخ والأئمة ، وأنه لا حق لنا في التمسك بالحديث يروى بخلاف رأى الأئمة والمدون في الكتب ، لأنهم أعلم منا بالحديث وبمعناه ، فلا شأن لنا به ولا يصح أن نعدل إليه ونترك ما ألفناه من العبادة وكيفيتها .

سرى ذلك في عقائد الناس فعملوا بالبدعة وتركوا السنة ،

مبررين أعمالهم بكلمة مأثورة وضعها أرباب الابتداع لتكون سبيلا إلى ترويج بدعهم وهي « مَنْ قلد عالما لقي الله سالما » وقد فات هؤلاء أن التقليد المباح المطلوب ، شرطه الاستشراف إلى الحق ، والرجوع إليه ببينة . وأنه ما من إمام إلّا حذر من الاتباع وترك الحديث إذا صح ، وفاتهم أن هذه الطريقة قد أنكرها الله في كتابه الكريم على من جعل اتباع الآباء والأسلاف أصلا في الدين يرجع إليه دون سواه ، حتى ردوا برهان الرسالة وحجة القرآن بقولهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » وفاتهم أيضاً أن التعصب لرأى العلماء إلى هذا الحد نوع من اتخاذ غير الله ربا . وكان ذلك سنة اتباع الأحبار والرهبان « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » وفاتهم أن الإجماع الذي عد مصدرا من مصادر التشريع يجب اتباعه . ويتصل بهذا أيضاً الخطأ في فهم معنى الإجماع الذي عد من مصادر التشريع الاسلامي ، فقد يقع في أفهام كثير من الناس أن عمل الجمهور وبخاصة إذا اتفق توارثه عن أجيال سابقة ، وعم العمل به جميع الطبقات في المساجد والمجتمعات وأندية العلماء ، من إجماع الأمة التى ورد أنها لا تجتمع على ضلالة فلا يجوز مخالفته ولو ظهر ما يخالفه ، ومن هنا يشتد تمسكهم بالبدع بل بالمحرمات بحجة أنها أشياء

مأثورة وقد رآها العلماء وخالطوا أهلها ولم ينكروها ، فدل على أنها الشرع وغيرها الضلال المبين . وقد انتشر عن هذا الطريق كثير من بدع المساجد والموالد ، وإحياء الليالي ، والاستئجار على الختمات والتهاليل والتسابيح إلى غير ذلك مما هو معروف بأنه دين والدين منه برىء .

أما الثاني وهو تهاون العلماء في بيان الشريعة فإثمه على العلماء الذين أخذ الله عليهم العهد والميثاق أن يبينوا للناس ما نزل إليهم ، وقد أهمل جمهور العلماء من زمن بعيد هذا الواجب الديني العظيم الذي يتوقف عليه بقاء الشريعة سليمة نقية من ادران – أهملوه – إما ضعفاً وخوفاً من تألب العامة وغضب الخاصة ، وإما مجاملة للعظماء والحكام ، وإما تهاوناً بأصل الواجب وجرياً على قاعدة « دع الخلق للخالق » التي يبررون بها احجامهم عن البيان ، وإما تواكلا ، نظرا إلى أن البيان واجب كفائي قيام البعض به يسقط وجوبه عن الباقين .

ولما سكت العلماء وألف الناس منهم ذلك السكوت عن كل ما يفعلون ، ظن العامة أن ما يفعلونه دين وشرع ، وربما جاراهم بحكم الإلف والعادة والعلماء لهم فيما يفعلون وبذلك

صار ردهم عما ألفوا من البدع إلى ما تركوا من السنة شاقا على من يحاوله ؛ لأنهم يرونه إحداثاً جديدا في الدين لم يعرفوه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

ولقد كان للعلماء من تحذير الله ، ترك البيان وإهمال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما يدفع بهم إلى مكافحة البدع كلما ذر قرنها ، والعمل على حفظ السنة كلما هبت عليها ريح عاصف ، ونرجو أن يكون من هذا ما ينبهنا إلى واجبنا وينقذنا من هول ما نحن فيه . هدانا الله إلى صراط المستقيم .

الفصل الثاني
في مضار الابتداع

لو أن مضار الابتداع تقف عند المبتدع ولا تتعداه إلى غيره لهان الأمر وسهل الخطب ؛ ولكن مضار الابتداع منها ما يصيب المبتدع ومنها ما يصيبه ويصيب أتباعه في العمل بالبدعة ، ومنها ما يصيب الدين نفسه ، ومنها ما يصيب الأمة التي وقع الابتداع في دينها .

أما ما يصيب المبتدع فهو اغتصاب حق التشريع الذي لا يكون إلا لله وحده . وذلك أن المبتدع يرى أن الناس مكلفون ببدعته ولذلك يقوم بالدعوة إليها والحث عليها . وهو من هذه الناحية يضع نفسه موضع المشرع الذي يتعبد الناس بأمره ونهيه ، وهذا بعينه اغتصاب حق التشريع الذي لا يكون إلا لله قصده المبتدع أم لم يقصده .

وقد وقع فيه مشركو العرب كما وقع فيه الأحبار والرهبان من أهل الكتاب ونعى القرآن الكريم على الفريقين مسلكهم ،

وقص علينا شيئاً مما شرعه المشركون بغير حق . قال تعالى في سورة الأنعام ﴿ **وقالوا هذه أنعام وحرث حِجْرٌ لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعامٌ حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها إفتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفَهُم إنه حكيم عليم .** ﴾ وقال تعالى في سورة النحل ﴿ **ولا تقولوا لما تصفُ ألسنتكم الكذب هذا حلالٌ وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب . إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون** » .

وقد ورد في تفسير قوله تعالى ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله** ﴾ أنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا يحلون ويحرمون ، وهذه الربوبية هي ربوبية التشريع التي تتحقق باغتصاب حق التحليل والتحريم .

ولا شك أن مسلك المبتدع في تحليل ما يحل وتحريم ما يحرم من غير سند شرعي ، وفي دعوة الناس إلى بدعته هو بعينه مسلك هؤلاء الذين اغتصبوا لأنفسهم حق التشريع الذي لا يكون إلا لله .

ولهذا كان المبتدع في هذه الناحية واضعا نفسه موضع المغتصب لحق التشريع الذي لا يكون إلا لله ، وواضعا نفسه موضع من يرى أن الحدود التي رسمها الله ليتقرب بها العباد إليه ، إما ناقصة وهو بابتداعه يستدرك ذلك النقص . وإما أن محمداً ﷺ خان الرسالة لأن الله يقول : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا . وجاء في كتاب عمر ابن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة « عليك بالسنة إنما سنها من قد عرف ما في خلافها من الخطأ والزلل والحمق ، فارض لنفسك بما رضي به القوم لأنفسهم فإنهم على علم وتقوى » .

فإذا كان المبتدع يرى أن ابتداعه لم يكن إلا لخير الناس في دينهم ، فما أجدره بالحزن العميق على نفسه بموقفه من البدعة التى عرف الشارع ما فيها من خطأ وزلل وحمق .

وإذا كان الابتداع يتضمن هذا الوضع السيء من هاتين الناحيتين : اغتصاب حق الله في التشريع ، والوقوف من التشريع موقف من يعتقد فيه النقص وعدم التمام ، فإنه من جهة ثالثة يوقع الناس في اعتقاد أن ما ليس من الدين دين ، وهو من التلبيس الذي أضل به كثير من أهل الكتاب وصرفوا

به كثيرا من الناس عن طريق الهدى والرشاد : « يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثاني عِطْفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق . ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

ومن هنا كان المبتدع ضالا عليه وزر عمله ، ومضلا عليه أوزار الذين اتبعوه في بدعته قال تعالى : ﴿ **ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم** ﴾ وفي الصحيحين (ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها) وقد أشار إلى ذلك الحديث : (وما من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها لأنه أول من سن القتل) وفيه دلالة واضحة على أن من سن مالا يرضاه الله ورسوله فهو كابن آدم الأول في تحمل قتل النفس التى تقتل ظلما ، لأن الإثم لم يتعلق بالقتل لخصوص كونه قتلا ، وإنما لأنه عمل مالا يرضاه الله وسن سنة لا يقرها الدين ، وإذا غاب عن المبتدع شيء من هذه المضار التى تحول حول العقيدة وتوشك أن تمسها ، فإنه لا يغيب عنه إنه بابتداعه

يعمل على إماتة السنن ، فقد ثبت أن من السنة ترك البدعة فلا يمكن إقامة أحدهما مع العمل بالأخرى ، وقد جاء عن حذيفة رضى الله عنه أنه أخذ حجرين فوضع أحدهما على الآخر ثم قال لأصحابه هل ترون ما بين هذين الحجرين من النور ؟ قالوا يا أبا عبد الله ، ما نرى بينهما إلا قليلا ، قال : والذي نفسي بيده لتظهرن البدع حتى لا يرى من الحق إلا قدر ما بين هذين الحجرين من النور . وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : ما يأتي على الناس من عام إلا أحدثوا فيه بدعة وأماتوا فيه سنة حتى تحيا البدع وتموت السنن .

وبهذه المعاني التى تلزم الابتداع في الدين صحت الأحاديث في رد عمل المبتدع عليه وحرمانه من الثواب وقد ورد عن يحيى ابن يحيى أنه ذكر الأعراف وأهله فتوجع واسترجع ثم قال : قوم أرادوا وجها من الخير فلم يصيبوه ، فقيل يا أبا محمد أفيرجى لهم مع ذلك لسعيهم ثواب ؟ فقال ليس في خلاف السنة رجاء ثواب .

والوجه فيه ظاهر ، فإن التقرب إلى الله لا ينال إلا بفعل ما شرع الله وعلى الوجه الذي شرعه . أما ما لم يشرعه من وسائل التقرب إليه فإنه لا يثيب عليه .

وصحت الأحاديث أيضاً في استحقاقه اللعنة وحرمانه من شفاعة الرسول ﷺ ، قال عليه السلام : « من أحدث حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » قال الشاطبي في الاعتصام : « وقد اشترك صاحب البدعة في اللعنة مع من كفر بعد إيمانه ، وقد شهر أن بعثه النبي ﷺ لا شك فيها وجاءه الهدى من الله والبيان الشافي . وذلك قوله تعالى : ﴿ **كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق - إلى قوله - أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ... الخ** ﴾ .

واشترك أيضاً مع من كتم ما أنزل الله وبينه في كتابه وذلك في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ... الخ** ﴾ .

فتأملوا المعنى الذي أشرك المبتدع فيه مع هاتين الفرقتين . وذلك مضادة الشارع فيما شرع ؛ لأن الله أنزل الكتاب وشرع الشرائع وبين الطريق للسالكين على غاية ما يمكن من البيان فضادها الكافر بأن جحدها جحدا ، وضارها كاتمها

بنفس الكتمان ، لأن الشارع يبين ويظهر ، وهذا يكتم ويخفي ، وضاده المبتدع بأن وضع الوسيلة لترك ما بين وإخفاء ما ظهر .

أما ما يصيب أتباع المبتدع فهو الحرمان من الثواب ، لأنهم يعبدون الله بالبدع التي لم يقرها دينا ولم يجعلها طريقا للعبادة ، ولأنهم يتركون بكل بدعة يعملونها سنة من السنن التي جاء بها الرسول وحث عليها ، ولهم بذلك كفل من العمل في هدم الدين عليه يجازون وبه يعاقبون ، وقد حكى الله لنا شيئاً من عاقبة الأتباع الذين أخذوا بأباطيل المبتدعين ، وألقوا بأنفسهم في أحضانهم وقد كان ميسورا لهم أن يعرفوا الحق من أهله وأن يرجعوا إليه ، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ **وقال الذين اتَّبَعُوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار** ﴾ وقال في سورة الأحزاب : ﴿ **يوم تقلَّب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا : وقالوا ربنا إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا** ﴾ .

أما ما يصيب الدين نفسه من الابتداع فهو خفاء كثير من

أحكامه وتشويه جماله . والأول سبب من أسباب اندراس الشرائع ، والثاني سبب من أسباب الإعراض عنها وعدم احترامها . ويتجلى هذا في بدع أهل الطرق وغيرها مما يصور الدين تصويرا يأباه ما للدين من جمال وجلال ، وكثيرا ما تنشر البدع وتأخذ مكانة الدين في النفوس وتصبح هي الدين المتبع عند الناس ، وبقدر ذيوعها يكون اندراس الدين ، وهذا هو الطريق الذي اندرست به الشرائع السابقة وانحرف عنها المتدينون ، ولهذا نعى القرآن الكريم على من حرفوا الكلم عن مواضعه وأخفوا كثيرا من الأحكام .

أما ما يصيب الأمة التى دخلت البدع في دينها فهو إلقاء العداوة والبغضاء بين أهل الإسلام ، وذلك أن صاحب البدعة ينتصر لبدعته والسنة لابد لها من طائفة تبينها وتقوم عليها ، وبذلك تنقسم الأمة على نفسها وتصبح شيعاً وأحزاباً ، وقد يشتد الخصام بين الفرق فيقع بينهم التكفير واستحلال الدماء وتنقلب الأمة يضرب بعضها رقاب بعض ، قال عائشة : ألا إن نبيكم قد برىء ممن فرق دينه واحترب ،وتلت قوله تعالى : **﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾** .

وقد جاء في الوصايا العشر بآخر سورة الأنعام قوله تعالى : ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ .

وروى أحمد والنسائي أن رسول الله ﷺ خط خطا بيده ثم قال هذا سبيل الله مستقيما ، ثم خط خطوطا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال وهذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ : ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات** ﴾ .

وقد عنى القرآن كثيرا بتحذير الأمة من التفرق والاختلاف لأنه الداء الوبيل الذي يسرع بالفناء إلى الأمم .

وبعد : فهذا موجز القول في بيان الأضرار المترتبة على الابتداع ، نرجو أن يجد فيها المبتدعون ما يردعهم عن خطة الابتداع ، ويدفع بهم إلى تعرف السنن والتمسك بها .

هدانا الله إلى صراطه المستقيم.

الواسطة

بين الحق والخلق

لشيخ الإسلام ابن تيمية

تمهيـــد

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور انفسنـا ، ومن سيئـات أعمالنا ، من يهده الله فلا مُضل له ، ومن يُضللْ فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أمـا بعـد فإن موضوع الواسطة بين الحق والخَلق بحث خطـير ، جهله أكثـر المسلمـين - ويا للأسف - فكان من نتيجـة ذلـك هذا الـذي نعـاني ، بعـد ما حرمنـا نصر الله سبحـانـه وتعالى ، وتأييده الذي وعدنا به إذا ما لجأنا إليه واتبعنـا شرعه فقال : **(وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)** (١) ، **(إن تنصروا الله يَنصُرْكم ويُثبِّتْ أقدامكم)** (٢) ، **(ولله العـزة ولـرسـولـه وللمؤمنـين)** (٣) ، **(وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)**(٤) .

---

(١) سورة الروم آية : ٤٧ (٢) محمَّد : ٧

(٣) المنافقون : ٨ (٤) آل عمران آية ١٣٩

وقد انقسم الناس في فهم الواسطة بين الحق والخلق (أي بين الله تعالى وبين عباده) إلى ثلاث طوائف:

١ - من انكر كون الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - بعثه الله سبحانه واسطة - وحده - لتعليم الشريعة، وادَّعوا - ويا هول ما ادَّعوا - أن هذه الشريعة للعوام، وراحوا يُسمونها علم الظاهر... واعتمدوا في عبادتهم على أوهام وخرافات أطلقوا عليها علم الباطن، وسموه «كشفاً»، وما هو في الحقيقة إلا وساوس ابليسية ووسائط شيطانية مخالفة لأبسط مبادىء الاسلام. وشعارهم في ذلك: «حدثني قلبي عن ربي»!!

وهم في ذلك يسخرون من علماء الشريعة، ويعيبون عليهم بأنهم يأخذون علمهم ميتاً عن ميت... أما هم فإنهم يأخذون العلم مباشرة عن الحي القيوم! ففتَنوا بذلك كثيراً من العامة وأضلوهم، وارتكبوا من المخالفات الشرعية ما هو مسجل في كتبهم مما دعا العلماء إلى تكفيرهم وسفك دمائهم بسبب ارتدادهم، جاهلين أو

متجاهلين المبدأ الأول من الشريعة وهو أن مَن عبَد الله تعالى بغير ما أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو كافر لا محالة لقوله تعالى : **(فلا ورَبِك لا يؤمنون حتى يُحَكِّمُوك فيما شجَرَ بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيتَ ويُسلِّموا تسليماً)*** النساء : ٦٥

وهكذا زيَّن لهم الشيطان أعمالهم بمحاربة العلم وإطفاء نوره ، فساروا في ظلمات بعضها فوق بعض ، وانصرفوا إلى أهوائهم وخيالاتهم يتعبدون الله بها ، وهم كما وصفهم الله سبحانه في القرآن **(قل هل نُنبِّئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهُم في الحياة الدنيا ، وهم يَحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً ، أولئك الذين كَفروا بآيات ربهم ولقائه ، فحبطت أعمالهم ، فلا نُقيم لهم يوم القيامة وزناً)*** سورة الكهف من آية ١٠٣ - ١٠٥

وقد انقسمت هذه الطائفة إلى عدة فرق وطرق يحارب بعضها بعضاً بسبب بُعدها عن الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ،

وجميع هذه الفرق في النار كما ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي!»

رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة.

٢ - ومنهم من بالغ في هذه الواسطة، وفهمها فهماً خاطئاً، وحَمَّلها ما لا تحمل، فاتخذ من ذات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وغيره من الأنبياء والصالحين وسائط، معتقداً أن الله سبحانه لا يقبل من عباده عملاً إلا إذا جاؤوا إليه بهؤلاء الوسطاء ليكونوا لهم وسيلة عنده، تعالى عما يقولون علُوًّا كبيراً، فقد وصفوه - والعياذ بالله - بما يأبى أن يوصف به حتى الملوك المستبدون الظالمون الذين وضعوا على أبوابهم الحجاب فلا يدخل عليهم إلا من له واسطة!

فأين هذا الاعتقاد من قوله سبحانه: ﴿وإذا سألك

عبادي عني ، فإني قريب أُجيبُ دعوةَ الداع إذا دعان ، فلْيستجيبوا لي ولْيؤمنوا بي لعلهم يرشُدون) سورة البقرة ١٨٦ وهذه الآية الكريمة تشير إلى أن الواسطة الوحيدة للوصول إليه تعالى هى الايمان به إيماناً صحيحاً، ثم عبادته بما شرع، وقد قدمت هذه الآية العبادة على الايمان لتنبيه الناس إلى خطورة العمل الصالح، وأنه الشرط الضروري، للفوز برضا الله والحصول على جنته .

وقد ذكر الله سبحانه الوسيلة في القرآن ويريد بها الطاعات، وهي الواسطة الوحيدة التي تقربك إليه، وتفتح لك أبواب رحمته وتدخلك جنته : **(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ، وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون)** . (المائدة : ٣٥)

وقد استهزأ تعالى بالمغفلين الجاهلين الذين يتخذون من عباده الصالحين وسيلة، وهم أنفسهم بحاجة إلى هذه الوسيلة، وهى الطاعة التي تقربهم إلى الله، ولا سبيل لهم إليه بغيرها كما جاء في قوله : **(أولئك الذين يدعون ،**

يبتغـون إلى ربهم الـوسيلة ! أيُّهم أقربُ ، ويرجون رحمَته ويخـافـون عذابـه ، إن عذاب ربـك كان محذوراً).

(الاسراء : ٥٧)

ومن المؤسف أن هؤلاء المغفلين راحوا يعتمدون على ذوات هؤلاء الـوسـائـط ، مما أغـراهم بإهمال الصالحات وارتكاب المحرمات ، الأمرُ الذي سبب انحطاط المسلمين الذين نسوا أو تناسوا قوله تعالى يخاطب رسوله ، وهو سيِّد ولـد آدم : (**قـل : لا أملك لنفسي نفعـاً ولا ضراً!**) (١) ، وقـوله صلى الله عليه وآله وسلم لابنته وريحانة قلبه : «يا فاطمـة سليني من مالي ما شئت لاأغني عنك من الله شيئاً» (٢) وقـولـه : «إذا مات الانسـان انقطـع عمله إلا من ثلاث . . . » الحديث رواه مسلم

ولو لم يكن في النصوص على عدم جواز التوسل بذوات

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٨٨

(٢) متفق عليه

الأنبياء والصالحين ، غير توسل عمر بن الخطاب بدعاء العباس ، وتركه التوسل بذات النبي ﷺ لكفى في الرد على هذا الفريق . وما أحسن ما قاله الامام أبو حنيفة رحمه الله : «وأكره أن يسأل الله إلا بالله» كما في الدر المختار وغيره من كتب الحنفية . ولو جاز اتخاذ الواسطة إلى الله بذوات من ذكرنا ، لجاءت أدعية القرآن والحديث - وما أكثرها - مقرونة بالتوسل بذاتهم!

٣ - ومن المسلمين مَن فهم هذه الواسطة بين الحق والخلق أنها الرسالة ، وهى تبليغ وتعليم وتربية ، وأدرك علو شأنها ومبلغ حاجة البشرية إليها ، فسارعوا إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يتخذونه الواسطة الكبرى والوسيلة العظمى لتلقى الشريعة والاستضاءة بنور الوحى ، فيتدارسون سيرته وسنته كما يتدارسون القرآن ، شعارهم فى ذلك نداء الله سبحانه : (. . **قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين يهدي بهِ الله من اتبعَ رضوانه سبُل**

السلام ويُخرِجُهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويَهدِيْهم إلى صِراط مستقيم!) المائدة : من آية : ١٥ إلى ١٦

هذه الفرقة هى الناجية التي ذكرت في الحديث السابق وبشِّرت بالجنة .

ومن المؤلم أن طريق هذه الطائفة مملوء بالأشواك والعقبات، لأن الاسلام الصحيح أصبح غريباً ، وقد بعُد عنه المسلمون - أغلب المسلمين - واستعاضوا عنه بالبدع والأوهام . . .

وهذا البلاء قديم ، ودور المصلحين فيه شاق خطير ، قال عمر بن العزيز رضى الله تعالى عنه : «إننا نعالج أمراً لا يُعين عليه إلا الله تعالى ، قد فنى فيه الكبير ، وشاب الصغير ، وهاجر الأعرابي ، يحسبونه ديناً ، وليس هو عند الله بدين ! !»

ولا بدع في ذلك ، فقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن غربة الدين ، فقال : «بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء» رواه مسلم عن أبي

هريرة . وفي رواية رواها أحمد وابن ماجة : قيل يارسول الله من الغرباء؟ قال : النُزَّاع (١) من القبائل . وفي رواية حسنة للترمذي : «طوبى للغرباء الذين يُصلحون ما أفسد الناس من سنتي» وفي رواية لأحمد صحيحة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعدما قيل له مَن الغرباء «أناسٌ صالحون ، في أناس سوء كثير مَن يعصيهم أكثر ممن يُطيعهم» .

فلْتعمل هذه الطائفة في دروب الاصلاح ، ولتحمل مصباح التجديد حتى يستيقظ المسلمون ويرجعوا إلى الاسلام الصحيح ، ولنقل للمعارضين المخربين ما قاله الله سبحانه لأقرانهم : **(وما لنا ألَّا نتوكلَ على الله ، وقد هَدَانا سبُلنا ، وَلَنصْبرَنَّ على ما آذيتُمونا ، وعلى الله**

---

(١) والنزَّاع الغرباء لأن أهل الحديث يَقلُّون في آخر الزمن ، فلا يوجد في كل قبيلة منهم إلا الواحد أو الاثنان ، وقد لا يوجد في بعض القبائل منهم أحد!!

فليتوكل المتوكلون) . سورة ابراهيم آية : ١٢

والآن ندع الكلام لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يشرح هذه الواسطة في رسالته القيمة : «الواسطة بين الحق والخلق» وهى جديرة أن تكتب بماء الذهب ويتدارسها المسلمون بإمعان وتدبُّر ليستيقظوا من نومهم ويأخذوا بأسباب القوة والنصر والمجد . تاركين الارتماء على قبور الانبياء والصالحين، والتمسح بأعتابهم بخشوع وذل وانكسار . . . وصلى الله على سيدنا محمد معلم الخير، وعلى آله وصحبه وسلم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

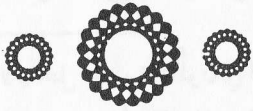

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، آلله خيرٌ أمَّا يُشركون)، أما بعد فهذه رسالة في رجلين تناظرا فقال أحدهما لابد لنا من واسطة بيننا وبين الله فإنا لا نقدر أن نصل إليه بغير ذلك *

الرسل واسطة تبليغ

(الجواب) الحمد لله رب العالمين . إن أراد بذلك أنه لابد من واسطة تُبلغنا أمرَ الله فهذا حق فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه وما أمر به وما نهى عنه وما أعده لأوليائه من كرامته، وما وعد به أعداءه من عذابه، ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى، وصفاته العليا التي تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك إلا بالرسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى عباده *

فالمؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون الذين يُقربهم لديه زُلفى ويرفع درجاتهم، ويُكرمهم في الدنيا والآخرة *

واما المخالفون للرسل فإنهم ملعونون وهم عن ربهم ضالون محجوبون قال الله تعالى : (يا بني آدم إمَّا يأتِيَنَّكم رسلٌ منكم يَقصُّون عليكم آياتي فمن اتَّقىٰ وأصلحَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون والذين كذَّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون)(١)* وقال تعالى : (فإما يأتِيَنَّكم مني هُدَىً فَمن اتَّبعَ هُدَايَ فلا يَضلُّ ولا يَشْقىٰ ومَن أعرضَ عن ذكري فإنَ له معيشةً ضَنْكاً ونَحشُرُهْ يومَ القيامة أعمىٰ قال رَب لِمَ حشرتني أعمىٰ وقد كنتُ بصيراً قال كذلك أَتَتْكَ آيَاتُنا فَنَسِيْتَها وكذلكَ اليومَ تُنْسىٰ) * سورة طٰهٰ من آية : ١٢٣ إلى ١٢٦

---

(١) سورة الأعراف آية ٣٥ ، ٣٦

قال ابن عباس : تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة *

وقال الله تعالى عن أهل النار : (كُلَّما أُلْقِيَ فيها فوجٌ سألهم خزنتُها ألم يأتكم نذير؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذَّبْنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلالٍ كبير) * الملك : من آية : ٨ إلى ٩

وقال الله تعالى :(وسيقَ الذين كفروا إلى جهنمَ زُمَراً حتى إذا جاؤوها فُتِحت أبْوَابُها وقال لهم خزنتُها ألم يأتِكم رسلٌ منكم يتلونَ عليكم آياتِ ربكم ويُنذِرُونكم لقاءَ يَومِكُم هذا ، قالوا بَلىٰ ولكن حَقَّتْ كلمةُ العذابِ على الكافرين) * سورة الزمر آية : ٧١

وقال تعالى :(وما نرسِلُ المرسَلينَ إلا مُبشِّرين ومُنذِرينَ فَمَنْ آمنَ وأصلحَ فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذَبوا بآياتنا يَمسُّهم العذابُ بما كانوا يفسُقون) * سورة الأنعام آية ٤٨ إلى ٤٩

وقال تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيِّين مِن بعده، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زَبُوْراً ورسُلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسُلاً لم نقصُصْهم عليك وكلّم الله موسى تكليما رسُلاً مُبشرين ومُنذرين لئِلا يكونَ للناس على الله حُجةٌ بعدَ الرسل) ومثل هذا في القرآن كثير *

سورة النساء آية ١٦٣ إلى ١٦٥

وهذا ما أجمع عليه جميع أهل المِلل من المسلمين واليهود والنصارى، فإنهم يُثبتون الوسائط بين الله وبين عباده وهم الرسل الذين بلَّغوا عن الله أمره وخبرَه *.

قال تعالى : (الله يصطفي مِن الملائكة رسلاً ومن الناس) سورة الحج آية : ٧٥

ومَن أنكر هذه الوسائط فهو كافر باجماع أهل الملل*

والسور التي أنزلها الله بمكة مثل الأنعام والأعراف وذوات (آلر) و(حم) و(طس) ونحو ذلك هى متضمنة

لأصول الدين كالايمان بالله ورسله واليوم الآخر *

وقد قص الله قصص الكفار الذين كذبوا الرسل وكيف أهلكهم ونصر رسله والذين آمنوا *

قال تعالى : (ولقد سبقت كلمتُنا لِعبادنا المرسَلين إنهم لَهم المنصورون وإن جُندنا لهم الغالبون) * الصافات من ١٧١ إلى ١٧٣

وقال الله تعالى : إنا لَننصُر رسلَنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)* المؤمن آية : ٥١

فهذه الوسائط تُطاع وتُتَّبع ويُقتدى بها كما قال تعالى : (وما أرسلنا مِن رسول إلا ليُطاع بإذن الله)* النساء آية : ٦٤

وقال تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله) النساء آية ٨٠ وقال تعالى : (قل إن كنتم تُحبون الله فاتَّبعوني يُحببكم الله)* آل عمران آية ٣١

وقال : (فالذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه واتَّبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون)* الأعراف: ١٥٧

وقال تعالى : **(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)*** سورة الأحزاب آية : ٢١

الرسل لا يجلبون النفع

وإن أراد بالواسطة أنه لا بد من واسطة في جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم يسألونه ذلك ويرجعون اليه فيه، فهذا من أعظم الشرك الذي كفَّر الله به المشركين حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع ويجتنبون المضار، لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها قال الله تعالى : **(الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم مِن دونه مِن وليٍ ولا شفيعٍ أفلا تتذكرون)*** السجدة آية : ٤

وقال تعالى : **(وأنذِرْ به الذين يخافون أن يُحشَروا إلى ربهم ليس لهم مِن دونه وليٌ ولا شفيع)*** الأنعام آية (٥١)

وقال الله تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم مِن دونه فلا يملكون كشف الضُرِّ عنكم وَلا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيُّهم أقربُ ويرجون رحمتَه ويخافون عذابه إن عذاب رَبك كان محذوراً)

الاسراء من آية ٥٦ إلى ٥٧

وقال : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرَّة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما مِن شِرك وما له منهم من ظَهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لِمن أذِنَ له)* سبأ من آية : ٢٢ إلى ٢٣

وقالت طائفة من السلف : أقوام يدعون المسيح والعُزير والملائكة ، فبين الله أن الملائكة والأنبياء لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا ، وأنهم يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه *

وقال الله تعالى : (ما كان لِبشر أن يُؤتيه الله الكتاب والحُكم والنبوَّة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ؛ ولكن كونوا ربَّانيِّين بما كنتم تُعلّمون الكتاب وبما

كنتم تَدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيِّين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مُسلمون) آل عمران من آية ٧٩ إلى ٨٠

فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر، فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يسألهم غفران الذنب، وهداية القلوب، وتفريج الكروب ، وسد الفاقات فهو كافر بإجماع المسلمين *

وقد قال الله تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عبادٌ مكرمون لا يَسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يَشفعون إلا لِمن ارتضى وهُم مِن خشيته مُشفِقون. ومَن يَقُلْ منهم إني إلَهٌ مِن دونهِ فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين) * سورة الأنبياء من آية ٢٦ إلى آية ٢٩

وقال تعالى : لن يَستنكِفَ المسيحُ أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرَّبون ومَن يستنكِفْ عن عبادته ويستكبرْ

فسيحشرُهم إليه جميعا) النساء : ١٧٢

وقال الله تعالى : (وقالوا اتَّخذ الرحمن ولداً لقد جِئتُمْ شيئاً إدّاً تكادُ السمواتُ يتفطَّرنَ منه وتنشقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجبالُ هَدّاً أنْ دعَوْا لِلرحمن ولداً، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا، إن كلُّ من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً، لقد أحصاهم وعدَّهم عدّاً وكلُّهم آتيهِ يومَ القيامةَ فرداً) سورة مريم من آية : ٨٨ إلى آية ٩٥

وقال الله تعالى : (ويعبدون مِن دون الله ما لا يضرُّهم ولا ينفعهُم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبِّئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يُشركون)* يونس : ١٨

وقال الله تعالى : (وكم مِن مَلَك في السموات لا تُغني شفاعتُهم شيئاً إلا مِن بعد أن يأذن الله لِمن يشاء ويَرضى)* النجم : ٢٦

وقال الله تعالى : (مَن ذا الذي يشفعُ عنده إلا بإذنه)* البقرة ٢٥٥

وقال الله تعالى : (وإن يمسَسْكَ الله بِضُرٍ فلا كاشِفَ له إلا هو وإن يُرِدْكَ بخيرٍ فلا رادَّ لِفضلِه)* يونس : ١٠٧

وقال الله تعالى : (ما يَفتَح الله لِلناس مِن رحمةٍ فلا مُمسِكَ لها وما يُمسِكْ فلا مُرسِل له مِن بعده)* فاطر : ٢

وقال الله تعالى : (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنيَ الله بِضُرٍّ هلْ هُنّ كاشفاتُ ضُرِّهِ أو أرادني برحمةٍ هَل هُنَّ مُمْسكاتُ رحمتِه، قل حسبيَ الله عليه يتوكل المتوكلون) الزمر آية : ٣٨ ومثل هذا كثير في القرآن *

العلماء ورثة الأنبياء

ومَن سِوى الأنبياء من مشايخ العلم والدين ، فمن أثبتهم وسائط بين الرسول وأمته يُبلغونهم ويُعلمونهم ويؤدبونهم ويقتدون بهم فقد أصاب في ذلك*

وهؤلاء إذا أجمعوا فإجماعهم حُجة قاطعة لا يجتمعون على ضلالة وإن تنازعوا في شيء ردوه إلى الله والرسول، إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الاطلاق، بل كلُّ أحدٍ من الناس يؤخذ من كلامه ويُترك إلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : «العلماء ورثة الأنبياء فإن الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر (١) » *

ومن أثبتهم وسائط بين الله وبين خلقه كالحجاب الذي بين الملك ورعيته بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله

---

(١) رواه أبو داود وغيره بسند حسن .

حوائج خلقه - فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم - فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله، كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقربهم منهم، والناس يسألونهم أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك، أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج، فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك يجب أن يُستتاب فإن تاب وإلا قتل، وهؤلاء مُشبهون لله شبهوا المخلوق بالخالق وجعلوا لله أنداداً *

أنواع الوسائط المردودة

وفي القرآن الكريم من الرد على هؤلاء ما لم تتسع له هذه الفتوى، فإن الوسائط التي بين الملوك وبين الناس

يكونون على أحد وجوه ثلاثة :

الوجه الأول : إما لاخبارهم من أحوال الناس بما لا يعرفونه، ومَن قال إن الله لا يعلم أحوال عباده حتى يُخبره بذلك بعض الملائكة أو الأنبياء أو غيرهم فهو كافر، بل هو سبحانه يعلم السر وأخفى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء وهو السميع البصير * يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، لا يشغله سمع عن سمع ولا تُغلطه المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين .

الوجه الثاني : أن يكون الملك عاجزاً عن تدبير رعيته ودفع أعدائه إلا بأعوان يُعينونه، فلا بُدَّ له مِن أنصار وأعوان لِذُله وعجزه، والله سبحانه ليس له ظَهير ولا ولي من الذل قال الله تعالى : **(قل ادعوا الذين زعمتم مِن دون الله لا يملكون مثقال ذَرَّة في السمواتُ ولا في الأرض وما لهم فيهما من شِركٍ وما له منهم مِن ظَهير)** سبأ آية ٢٢ (وقل الحمدُ لله الذي لم يتخِذْ ولداً ولم يكنْ له شريكٌ في الملك ولم

يكن له وليٌّ مِن الذُلِّ وكبِرْه تكبيرا) الاسراء آية ١١١

وكل ما في الوجود من الأسباب فهو خالقه وربُّه ومليكه فهو الغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، بخلاف الملوك المحتاجين إلى ظهرائهم وهم في الحقيقة شركاؤ هم في الملك، والله تعالى ليس له شريك في الملك، بل لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

والوجه الثالث : أن يكون الملك ليس مُريداً لنفع رعيته والاحسان إليهم ورحمتهم إلا بمُحرك يُحركه من خارج، فإذا خاطب الملك من ينصحه ويعظمه أو من يدل عليه بحيث يكون يرجوه ويخافه تحركت إرادة المِلك وهمَّته في قضاء حوائج رعيته، إما لما حصل في قلبه من كلام الناصح الواعظ المشير، وإما لما يحصل من الرغبة أو الرهبة من كلام المُدِلِ عليه، والله تعالى هورب كل شيء ومليكه وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، وكل الأشياء إنما تكون بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو إذا

أجرى نفع العباد بعضهم على بعض فجعل هذا يُحسن إلى هذا ويدعوله ويشفع فيه ونحوذلك فهو الذي خلق ذلك كله، وهو الذي خلق في قلب هذا المحسن الداعي الشافع إرادة الاحسان والدعاء والشفاعة *

ولا يجوز أن يكون في الوجود من يُكرهه على خلاف مراده أو يُعلِمه ما لم يكن يعلم أو من يرجوه الرب ويخافه، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : «**لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت لِيعْزِمْ المسألة فإنه لا مُكرِهَ له**» * (١)

والشفعاء الذين يشفعون عنده لا يشفعون إلا بإذنه كما قال (**مَن ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**) * البقرة : ٢٥٥

وقال الله تعالى :(**ولا يشفعون إلا لمن ارتضى**) سورة الأنبياء آية ٢٨ وقد قال تعالى (**قل ادعوا الذين زعمتم مِن دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في**

---

(١) رواه البخاري

الأرض، وما لهم فيهما من شركٍ وما له منهم مِن ظهير. ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لِمن أذن له) سورة سبأ آية ٢٢ ، ٢٣ فبين أن كل مَن دُعي من دونه ليس له ملك ولا شرك في الملك ولا هو ظهير ، وأن شفاعتهم لا تنفع إلا لمن أذن له * وهذا بخلاف الملوك فإن الشافع عندهم قد يكون له ملك ، وقد يكون شريكاً لهم في الملك ، وقد يكون مُظاهراً لهم مُعاوناً لهم على ملكهم.

وهؤلاء يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك هم وغيرهم ، والمِلك يقبل شفاعتهم تارة بحاجته اليهم ، وتارة لخوف منهم ، وتارة لجزاء إحسانهم إليه ومكافأتهم ولانعامهم عليه ، حتى إنه يقبل شفاعة ولده وزوجته ، لذلك فإنه مُحتاج إلى الزوجة وإلى الولد ، حتى لو أعرض عنه ولده وزوجته لتضرر بذلك ، ويقبل شفاعة مملوكه ، فإذا لم يقبل شفاعته يخاف أن لا يُطيعه أو أن يسعى في ضرره ؛ وشفاعة العباد بعضهم عند بعض كلها من هذا الجنس ، فلا يقبل

أحد شفاعة أحد إلا لرغبة أورهبة . والله تعالى لا يرجو أحدا ولا يخافه ولا يحتاج إلى أحد، بل هو الغني قال الله تعالى : (ألا إن لله مَن في السموات ومن فى الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يَخرصُون) سورة يونس من آية ٦٦ إلى ٦٨ إلى قوله (قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض) والمشركون يتخذون شفعاء من جنس ما يعدونه من الشفاعة . قال الله تعالى : (ويعبدون من دون الله ما لا يَضُرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون) * سورة يونس : ١٨

وقال تعالى (فلولا نصَرهُم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة، بل ضلّوا عنهم وذلك إفكُهم وما كانوا يفترون) * الأحقاف : ٢٨

وأخبر عن المشركين أنهم قالوا (ما نعبدُهم إلا لِيُقرّبونا

إلى الله زُلفى) الزمر (٣)

وقال تعالى :(ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيينّ أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) آل عمران : ٨٠

الشفاعة الباطلة والصحيحة

وقال الله تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشفَ الضرّ عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربِّهِمُ الوسيلةَ أيُّهم أقربُ ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً)

سورة الاسراء آية ٥٦ إلى ٥٧

فأخبر أن من يُدعى مِن دونه لا يملك كشف ضُرٍّ ولا تحويله، وأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه، ويتقربون إليه فهو سبحانه قد نفى ما للملائكة والأنبياء إلا الشفاعة بإذنه، والشفاعة هى الدعاء، ولا ريب أن دعاء الخلق بعضهم لبعض نافع والله قد أمر بذلك *

لكن الداعي الشافع ليس له أن يدعو ويشفع إلا بإذنه

في ذلك، فلا يشفع شفاعة نهى عنها كالشفاعة للمشركين والـدعـاء لهم بالمغفـرة قال تعـالى : (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قُربى من بعد ما تبيـن لهم أنهم أصحـابُ الجحيم ومـا كان استغفـار إبـراهيمَ لأبيـه إلا عن موعـدةٍ وعـدها إياه فلما تبيّن له أنه عَدوٌّ لله تبرَّ أ منه) * التوبة من آية ١١٣ إلى ١١٤

وقـال تعـالى في حق المنافقين (سَواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفِر لهم لن يغفر الله لهم)* المنافقون آية : ٦

وقـد ثبت في الصحيـح أن الله نهى نبيـه عن الاستغفار للمشركين والمنافقين وأخبر أنه لا يغفر لهم كما في قوله (إن الله لا يغفـر أن يُشـرَك به ويغفـر ما دون ذلـك لِمن يشـاء) النساء : ٤٨ وقوله (ولا تُصَلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تَقمْ على قبره إنهم كفـروا بالله ورسـولـه ومـاتـوا وهـم فاسقون) التوبة : ٨٤

وقد قال تعالى (أُدعوا ربكم تَضُرُّعاً وخفية إنه لا يُحب

المعتدين)[1] في الدعاء ومن الاعتداء في الدعاء أن يسأل العبد ما لم يكن الرب ليفعله مثل أن يسأله منازل الأنبياء وليس منهم أو المغفرة للمشركين ونحو ذلك، أو يسأله ما فيه معصية الله كإعانته على الكفر والفسوق والعصيان فالشفيع هو الذي أذن الله له في الشفاعة وشفاعته في الدعاء الذي ليس فيه عدوان، ولو سأل أحدهم دعاء لا يصلح له لا يُقَرُّ عليه، فإنهم معصومون أن يُقَرُّوا على ذلك. كما قال نوح (إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين) هود: ٤٥

قال الله تعالى: (يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عملٌ غيرُ صالح فلا تسألن ما ليس لك به عِلم إني أعِظُكَ أن تكون من الجاهلين قَال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفِرْ لي وترحمني أكن من الخاسرين) * هود: ٤٦ إلى ٤٧

وكل داع شافع دعا الله سبحانه وتعالى وشفع فلا

(١) الأعراف آية: ٥٥

يكـون دعاؤه وشفاعته إلا بقضاء الله وقدره ومشيئته، وهو الـذي يجيب الـدعـاء ويقبـل الشفـاعـة، فهو الذي خلق السبب والمسبِّب، والـدعـاء من جملة الأسباب التي قدرها الله سبحانه وتعالى *

مقدار الأسباب

وإذا كان كذلـك فالالتفات إلى الأسباب شرك (١) في التـوحيـد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقصٌ في العقل .. والاعـراض عن الأسبـاب بالكليـة قدح في الشرع (٢) بل العبـد يجب أن يكـون توكله ودعـاؤه وسؤاله ورغبتـه

---

(١) وذلـك إذا اعتقـد أن هذه الأسبـاب تؤثـر بنفسهـا دون أن ينظر إلى مسبب الأسباب وهو الله

(٢) يجب على المؤمن الأخـذ بالأسباب المشروعة والتوكل على الله لقوله صلى الله عليه وسلم للرجل «اعقلها وتوكل»

إلى الله سبحانه وتعالى والله يُقدِّرُ له من الأسباب من دعاء الخلق وغيرهم ما شاء .

والدعاء مشروع أن يدعو الأعلى للأدنى والأدنى للأعلى ، فطلب الشفاعة والدعاء من الأنبياء كما كان المسلمون يستشفعون بالنبي ﷺ في الاستسقاء ويطلبون منه الدعاء بل وكذلك بعده استسقى عمر والمسلمون بالعباس عمه ، والناس يطلبون الشفاعة يوم القيامة من الأنبياء ومحمد ﷺ ، وهو سيد الشفعاء وله شفاعات يختص بها ، ومع هذا فقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلُّوا عليَّ فإنه مَن صلَّى عليَّ مرة صلىَّ الله عليه عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله ، وأرجو أن أكون ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلَّتْ له شفاعتي يوم القيامة** * (وقد قال لعمر لما أراد أن يعتمر وودعه ياأخي لا تنسني من دعائك) (١) فالنبي ﷺ قد طلب من أمته أن تدعو له ، ولكن ليس

---

(١) في سنده عاصم بن عبد الله ، وهو ضعيف

ذلك من باب سؤ الهم، بل أمرُه بذلك لهم كأمره لهم بسائر الطاعات التي يثابون عليها من أنه ﷺ له مثلُ أجورهم في كل ما يعملونه *

فإنه قد صح عنه أنه قال «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» (١) وهو داعي الأمة إلى كل هدى فله مثل أجورهم في كل ما اتبعوه فيه، وكذلك إذا صَلُّوا عليه فإن الله يُصلي على أحدهم عشراً، وله مثلُ أجورهم مع ما يستجيبه من دعائهم له، فذلك الدعاء قد اعطاهم الله أجرهم عليه وصار ما حصل له به من النفع نعمة من الله عليه*

وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : «ما مِن عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكَّلَ الله به ملَكا كلما

---

(١) رواه مسلم

دعا لأخيه بدعوة قال المَلكُ الموكَّلُ به آمين ولك مثل ذلك» (٢) وفي حديث آخر «أسرع الدعاء دعوة غائب لغائب» (٣) فالدعاء للغير ينتفع به الداعي والمدعو له وإن كان الداعي دون المدعو له فدعاء المؤمن لأخيه ينتفع به الداعي والمدعو له، فمن قال لغيره ادع لي وقصد انتفاعهما جميعاً بذلك كان هو وأخوه متعاونين على البر والتقوى، فهو نبه المسؤول وأشار عليه بما ينفعهما.

والمسؤول فعل ما ينفعهما بمنزلة من يأمر غيره ببر وتقوى، فيُثاب المأمور على فعله، والآمر أيضا يثاب مثل ثوابه لكونه دعا اليه لا سيما من الأدعية ما يؤمر بها العبد كما قال الله تعالى: **(واستغفرْ لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات)** محمَّد: ١٩ فأمره بالاستغفار ثم قال **(ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسولُ لوجَدوا الله تواباً رحيما)** النساء: ٦٤ فذكر سبحانه

---

(٢) رواه مسلم

(٣) فيه عبد الرحمن بن زياد الافريقي وهو ضعيف

استغفارهم واستغفار الرسول حيث أمره أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، ولم يأمر الله مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً شيئاً لم يأمر الله المخلوق به، بل ما أمر الله العبد أمر إيجاب أو استحباب ففعله هو عبادةلله وطاعة وقربة إلى الله، وصلاح لفاعله وحسنة فيه، وإذا فعل ذلك كان من أعظم إحسان الله إليه وإنعامه عليه، بل أجلُّ نعمة أنعم الله بها على عباده أن هداهم للايمان، والايمان قول وعمل جائز بالطاعة والحسنات، وكلما ازداد العبد عملاً للخير ازداد إيمانه، هذا هو الانعام الحقيقي المذكور في قوله: (صراط الذين أنعمتَ عليهم) (١) وفي قوله: **(ومَن يُطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم)** سورة النساء: ٣٩

بل نِعَم الدنيا بدون الدين هل هي نعمة أم لا؟ فيه قولان مشهوران للعلماء من أصحابنا وغيرهم، والتحقيق أنها نِعمة من وجه، وإن لم تكن نعمة تامة من وجه *

وأما الانعام بالدين الذي ينبغي طلبه فهو ما أمر الله به

---

(١) الفاتحة: ٧

من واجب ومستحب، فهو الخير الذي ينبغي طلبه باتفاق المسلمين، وهو النعمة الحقيقية عند أهل السنة إذ عندهم أن الله هو الذي أنعم بفعل الخير، والقدرية عندهم انما أنعم بالقدرة عليه الصالحة للضدين فقط . والمقصود هنا أن الله لم يأمر مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً إلا ما كان مصلحة لذلك المخلوق، إماواجباً أومستحباً، فإنه سبحانه لا يطلب من العبد إلا ذلك فكيف يأمر غيره أن يطلب منه غير ذلك، بل حرم على العبد أن يسأل العبد ما له إلا عند الضرورة، وإن كان قصده مصلحة المأمور أو مصلحته ومصلحة المأمور فهذا يثاب على ذلك، وإن كان قصده حصول مطلوبه من غير قصد منه لانتفاع المأمور فهذا من نفسه أتِيَ*

ومثل هذا السؤال لا يأمر الله به قط بل قد نهى عنه إذْ هذا السؤال محض للمخلوق من غير قصده لنفعه ولا لمصلحته، والله يأمرنا أن نعبده ونرغب إليه ويأمرنا أن نحسن إلى عباده *

وإذا لم يقصد لا هذا ولا هذا فلم يقصد الرغبة إلى الله ودعاءه وهو الصلاة، ولا قصد الاحسان إلى الخلق

الذى هو الزكاة، وإن كان العبد قد لا يأثم بمثل هذا السؤال لكن فرق ما بين ما يؤمر به العبد وما يؤذن له فيه .

ألا ترى انه قال في حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم لا يسترقون؟ وإن كان الاسترقاء جائزا، وهذا قد بسطناه في غير هذا الموضع * والمقصود هنا أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك ، بل هذا دين المشركين عباد الأوثان كانوا يقولون إنها تماثيل الأنبياء والصالحين، وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله * وهو من الشرك الذي انكره الله على النصارى حيث قال: **«اتخذوا أحبارَهم ورُهبانهم أرباباً مِن دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا لِيعبدوا إلٰهاً واحداً لا إلٰه إلا هو سبحانه عما يشركون»**. التوبة : ٣١

---

* قال تعالى: «والذين اتخذوا من دونه أولياء، ما نعبدهم إلا لِيُقرّبونا إلى الله زُلفى، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون، إن الله لا يهدي مَن هو كاذب كفار» سورة الزمر (آية : ٣)

وقال تعالى : (**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعانِ فلْيستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون**) البقرة : ١٨٦ أي فليستجيبوا لي إذا دعوتهم بالأمر والنهي وليؤمنوا بي أي أني أجيب دعاءهم لي بالمسألة والتضرع ، وقال تعالى(**فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب**) الانشراح : ٧ إلى ٨ وقال تعالى : (**وإذا مسّكمُ الضرُّ في البحر ضَلَّ مَن تدعون إلا إيَّاه**) الاسراء : ٦٧ وقال تعالى : (**أمَّنْ يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض**)؟ النمل : آية ٦٢ وقال تعالى : (**يسأله مَن في السموات والأرض كلَّ يومٍ هو في شأن**)* الرحمن : آية ٢٩

وقد بين الله هذا التوحيد في كتابه وحسم مواد الاشراك به حتى لا يخاف أحد غير الله ولا يرجو سواه ولا يتوكل إلا عليه* قال تعالى : (**فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا**) المائدة: ٤٤ وقال تعالى : (**إنما ذلكم الشيطان يُخوِّفُ أولياءه**)آل عمران : ١٧٥ أي يخوفكم

أولياءه (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) وقال تعالى: (ألم تر إلى الذين قيل لهم كُفُّوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، فلما كُتِبَ عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناسَ كخشية الله أو أشدَّ خشية) النساء: ٧٧ وقال تعالى: (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله) التوبة: ١٨ وقال تعالى: (ومَن يُطع الله ورسوله ويخشَ الله ويَتَّقْهِ فأولئك هم الفائزون) النور: ٥٢ فبين أن الطاعة لله ورسوله، وأما الخشية فلله وحده. وقال تعالى (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله) التوبة: ٥٩ ونظيره قوله تعالى؛ (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) آل عمران: ١٧٣

الرسول يحقق التوحيد

وكان النبي ﷺ يحقق هذا التوحيد لأمته ويحسم عنهم مواد الشرك إذْ هذا تحقيق قولنا لا إله إلا الله، فإن الآله هو الذي تألهُ القلوب بكمال المحبة والتعظيم والاجلال والاكرام والرجاء والخوف حتى قال لهم: «**لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد**» (١) «**وقال له رجل ما شاء الله وشئت فقال أجعلتني لله نِداً قل ما شاء الله وحده**» (٢) وقال: «**مَن كان حالفاً فلْيحلفْ بالله أو ليصْمُت**» (٣) وقال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» (٤) وقال لابن عباس «**إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله جف القلم بما أنت لاقٍ فلو جهدَتْ الخليقة على أن تنفعك لم تنفعْك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو جهدتْ أن تضركَ لم تضرك إلا بشيء كتبه الله عليك**»

---

(١) صحيح رواه أحمد وغيره
(٢) رواه النسائي بسند حسن
(٣) متفق عليه
(٤) صحيح رواه أحمد

(٥) وقال أيضاً «لا تُطروني كما أطرتِ النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله» (٦) وقال «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبَد» (٧) وقال «لا تتخذوا قبري عيداً وصلُّوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم» (٨) وقال في مرضه «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. يحذر ما صنعوا قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يُتَّخذ مسجداً» (٩) وهذا باب واسع، ومع علم المؤمن أن الله ربُّ كل شيء ومليكه فإنه لا ينكر ما خلقه الله من الأسباب كما جعل المطر سببا لانبات النبات قال الله تعالى

---

(٥) رواه الترمذي وقال حسن صحيح

(٦) رواه البخاري

(٧) رواه أحمد بسند صحيح

(٨) رواه أبو داود بسند حسن

(٩) متفق عليه

(وما أنزل الله من السماء مِن ماء فأحيا به الأرضَ بعد موتها وبَثَّ فيها مِن كل دابة) البقرة : ٦٤ وكما جعل الشمس والقمر سبباً لما يخلقه بهما، وكما جعل الشفاعة والدعاء سبباً لما يقضيه بذلك مثل صلاة المسلمين على جنازة الميت، فإن ذلك من الأسباب التي يرحمه الله بها ويُثيب عليها المصلين عليه

الأسباب المشروعة وغير المشروعة

لكن ينبغي أن يُعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحدهما أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب، بل لا بد معه من أسباب أخر، ومع هذا فلها موانع . فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود وهو سبحانه ما شاء كان، وإن لم يشأ الناس، وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله .

الثاني أن لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم، فمن أثبت شيئاً بلا علم أو يخالف الشرع كان مبطلا مثل ما يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر وقال إنه لا يأتي بخير، وإنما يُستخرَج به من البخيل .

الثالث أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يُتخذ منها شيء سبباً إلا أن تكون مشروعة، فإن العبادات مبناها على

التوقيف، فلا يجوز للانسان أن يشرك بالله فيدعو غيره، وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه، ولذلك لا يُعبدُ الله بالبدع المخالفة للشريعة وإن ظن ذلك، فإن الشياطين قد تعين الانسان على بعض مقاصده إذا أشرك، وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الانسان، فلا يحل له ذلك، إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به، إذ الرسول ﷺ بُعث بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها. فما أمر الله به فمصلحته راجحة، وما نهى عنه فمفسدته راجحة. وهذه الجمل لها بسط لا تحتمله هذه الوريقات والله أعلم *

(تمت الرسالة والحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده).